الفصل الثامن عشر

أطفال الرب

لا تقترف إثماً، لا تتفوه بكلمات غاضبة،
فانتم يا أطفال الرب تنتسبون إلى يسوع.

س. ف. الاكسندر

كاد الانحراف الملعون للحملة الصليبية الرابعة أن يجلب إلى الحركة الصليبية سوء السمعة أو حتى أن يقتلها، ولكن لم يحدث ذلك، ففي أوائل القرن الثالث عشر برزت الحملات الصليبية، أو على أية حال حملات مسلحة دعيت بالحملات الصليبية ضد المسلمين في اسبانيا، وضد الهراطقة (المنشقين) البجنسيين في منطقة لانكودك في فرنسا وعلى الرغم من أن الحرب ضد البحنسيين انحطت لتتحول إلى صراع سياسي صريح، فقد بشرت بحماسة دينية شديدة إلى درجة التساؤل فيما إذا بدأ الهدف الصليبي بالهاب مشاعر إناس آخرين في ذلك الوقت أكثر من قبل، وفي الحقيقة، كان ذلك الوقت وقت حماسة دينية هائلة في كل مكان، إنما مختلفة عن تلك التي أثارت رجال الحملات الصليبية الأولى، لقد كان الصليبيون الأوائل قد حلموا في أن يصبحوا جنود المسيح كما اعتقدوا أنفسهم بدعوة الرب لهم لتحرير الأماكن المقدسة من الحكم المعادي والمعتدي، بقوة السلاح، وساروا شرقاً وهم على ثقة بقوة رب الحشود في جعلهم جميعاً من العظماء في القتال، وعندما أقصى اينوسنت عن قصد الزعماء المتوجين للعالم المسيحي الغربي عن صفوف حملته الصليبية مؤكداً حقيقة عدم إمكانية وجود قائد آخر للحملة الصليبية غيره

نفسه، قام بذلك لأنه اعتقد أن نفوذ منصبه الروحي سيكون سلاحاً قوياً لاخضاع المسلمين أكثر من قوة الملوك الأوروبيين الدنيوية، وحمل آخرون فكرة اينوسنت بعداً أوسع من ذلك، وقاموا بالتبشير عن قوة الفقير الطاهر روحاً، اللطيف الحليم، ألم يقل المسيح أن الضعفاء سيرثون الأرض؟ ألم يقل الجندي العظيم للمسيح، القديس بولس، أن قوة الرب جعلت كاملة عند الضعف؟ وبالتالي أليس ممكناً أن إخفاق الصليبيين الأوائل جاء لاعتمادهم على رجال هذا العالم الأقوياء، ولم يعتمدوا على الضعيف الفقير الذي يتقد بقوة الرب الموثوقة؟ وفتن مثل هذا التخمين عدداً هائلاً من الناس، وخلق جواً أوجد فكرة غير عادية سببت قيام حملة الأطفال ولولا ذلك لما ازدهرت ولم تعتنق بجدية.

كان هناك سابقون لذلك النوع من التفكير، فبعد إحراق الكاتدرائية في تشارترز في ليلة العاشر من حزيران 1194، اجتاحت موجة حماسة دينية بين الناس في فرنسا. وكانوا قد صمموا على إقامة دار مجيدة للعذراء المشهورة في تشارترز، وكان من بين أولئك الذين تدفقوا على المدينة لتقديم المساعدة في إنجاز المهمة العظيمة بالسرعة الممكنة، جماعات من الأطفال، قادهم فتيان ادعوا امتلاكهم مواهب خاصة من الرب، وشارك في أكثر الحركات التكفيرية أيضاً مجموعات من الأطفال، واعتقد آنذاك أن العديد منهم صانعو معجزات، ولذلك لم يفاجأ أحد بشكل خاص عندما ظهر غلام راعٍ في الثانية عشرة من العمر اسمه ستيفن قدم من مدينة صغيرة في كلويس على مسافة ثلاثين ميلاً جنوب تشارترز، ومعه مجموعة من الأطفال ظهر في دير القديس دنس حيث كان الملك فيليب أوغسطس يعقد بلاط قصره مدعياً استلام رسالة من المسيح بنفسه، يأمره فيها بالتبشير لحملة صليبية جديدة، ولم يتأثر رجال البلاط كثيراً بقوله، وأخبرهم أوغسطس أن يكونوا عقلاء، وينطلقوا إلى بيوتهم. غير أن ستيفن لم يتزحزح عن اعتقاده بأنه كان مرسلاً لمهمة ربانية، وشرع في التبشير خارج بوابات الدير بين أطفال المدينة.

ومن (القديس دنس) تنقل ستيفن حول فرنسا يبشر حيثما اتجه، ويعد بقيادة أطفال المسيح إلى الأرض المقدسة، فإن البحر سيجف أمامهم، كما حدث عندما قاد موسى أطفال إسرائيل خارج أرض مصر، وسيضع الرب القدس بين ايديهم، ألم يقل المسيح أنه ما لم يصبح الناس مثل الأطفال الصغار، فإنهم لن يتمكنوا مطلقاً من دخول مملكة الجنة؟ ولذلك كان واضحاً بالنسبة للأطفال فقط أن بوابات المدينة السماوية ستفتح لهم، فلندعهم يثقوا بالرب ويتبعوه، وسيقودهم إلى النصر في قوة روح القدس، ولا بد أن ستيفن قد منح قوة غير (؟) في الكلام، لأن أطفال فرنسا تبعوه في حشود هائلة، كما تأثر به بعمق العديد من البالغين الراشدين، رغم شكوك الكنيسة، وقام ببعث الحياة في روح أطفال آخرين، ليخرجوا ويبشروا بالحملة أيضاً، ورتب أموره للقائهم جميعاً في فندوم، في نهاية شهر حزيران، وتكلم الناس في دهشة عن اجتماع ثلاثين ألف طفل في المدينة، وعلى الأرجح أن العدد كان أقل من النصف، وحتى لو لم يكن أكثر من عشرة آلاف طفل، فإن ذلك بحد ذاته ما زال عدداً كبيراً.

ومن فندوم قاد ستيفن الصليبيين إلى مارسيليا، ولم يتجاوز الفرد منهم الثانية عشرة في حين كانت الرحلة طويلة ومرهقة إلى درجة أنه تعين عليهم أن يسألوا مساعدتهم في الطعام، وقد مات بعضهم في الطريق بينما وجل وارتعد آخرون من مشقة الرحلة، وفكروا بالأمر ككل بشكل أفضل وعادوا أدراجهم إلى بلادهم، وهي رحلة لم ينجح الجميع في إيجاد غايتها، وعندما وصل البقية إلى مارسيليا تصرف سكان المدينة اتجاههم بلطف، وانتعشت أرواحهم من جديد، وسارت الأمور بعد ذلك على ما يرام، وفي صباح اليوم التالي هرعوا جميعاً في ابتهاج وإثارة شديدين إلى الميناء متوقعين أن ينشق البحر على الفور أمامهم، وعندما لم يفعل اشتدت خيبة أملهم، وبدأ بعضهم يصب اللوم على خداعهم، ولكن الأكثرية هدأت، وجلست تنتظر أن يبت الرب في الأمر، ولم يخطر على بالهم أنه لن يقوم بذلك، غير أن المعجزة التي كانوا في انتظارها

كانت بطيئة التحقيق، وعندما تقدم تاجران محليان بعرض لتزويدهم بسبع سفن لنقلهم مجاناً إلى الأرض المقدسة تقبل الأطفال عرضهما بامتنان، وشكروا الرب لهذه المعجزة التي لم تكن قليلة الإثارة، في عالم تجاري صعب، وتبرز المصادر أن اسمي التاجرين كانا هيغ الحديدي ووليم الخنزير، وركب الأطفال السفن دونما تأخير وأبحرت بهم، ولم يسمع بعد ذلك عنهم أي خبر لمدة ثمانية عشر عاماً.

وكانت حماسة ستيفن معدية، فبعد فترة قصيرة من إبحاره من مارسيليا قام غلام ألماني من أراضي الراين باتباع خطوته ومثله، وبدأ يبشر بين أطفال ألمانيا للقيام بحملة صليبية، وكان اسمه نيكولاس، ومثل ستيفن نجح بشكل مدهش في إقناع الأطفال الآخرين باتباعه، وكذلك أيضاً مثل ستيفن وعدهم بجفاف البحر أمامهم، وبهداية الرب لهم للوصول إلى الأرض المقدسة بكل انتصار، وفوق ذلك وعدهم ليس باكتساب انتصارات عسكرية رائعة على المسلمين فحسب بل وعدهم بهداية هؤلاء إلى المسيحية، وثارت مشاعر أطفال آخرين بخطبته، وانطلقوا وحدهم يبشرون في أجزاء أخرى من البلاد، وتجمع جمهور من الشباب في كولونيا بعد عدة أسابيع، ومرة أخرى تكلم مؤرخو الأحداث عن مجموعة ثلاثين ألفاً، ومن الصعب مرة أخرى، البت في عددهم كما كان آنذاك على الرغم من أن العدد بالتأكيد كبير، وبعد انقسامهم إلى مجموعتين اتخذوا طريقين مختلفتين، وقاد نيكولاس المجموعة الكبيرة التي اعتقد أنها في ذلك الوقت تجاوزت عشرين ألف طفل عبر سويسرا إلى شمال إيطاليا، عبر ممر جبل سينيس وقد كانت رحلة موت حيث كان اثنان من كل ثلاثة أطفال يسقطان على طرف الطريق ليموتا، أو ليلاقيا قدراً آخر لا خبر عنه، أما أولئك الذين وصلوا إلى جنوة فقد عوملوا معاملة لطيفة، وعندما رفض البحر مرة أخرى أن ينفلق أمامهم بأعجوبة، قرر العديد منهم قبول عرض السلطات المدنية بالترحيب بهم كمواطنين جنويين، ورفض نيكولاس الاعتراف بالهزيمة، وسار ببطء وتثاقل مع بقية تابعية إلى بيزا حيث أثبت البحر

بشكل مساو أيضاً عدم تعاونه، ثم استمروا في مسيرهم إلى روما حيث رحب بهم البابا بلين ولطف، وأخبرهم أن عليهم الذهاب إلى بلادهم، وحاولوا اطاعته غير أن قلة منهم نجحت. وقيل أن أحد أولئك الذين لم يستمروا في الرحلة كان نيكولاس. وألقي القبض على والده من قبل بعض أهالي أطفال آخرين هلكوا، واتهموه بتشجيع ابنه في التمادي في جنونه، وبالتالي فهو مشترك في سبب موت أطفالهم، فشنقوه.

وكابدت المجموعة الثانية من الأطفال الألمان مشاقاً وخيبات أمل مشابهة، فقد عبرت جبال الألب عند ممر القديس غوتارد إلى انكونا حيث لم ينشطر البحر العنيد مرة أخرى، وساروا بأقدام غيرهيابين إلى برنديزي حيث أخفقت المعجزة مرة ثانية في مساعدتهم، وكان وقع ذلك عليهم عظيماً وعلى الرغم من أن قلة منهم اتخذت طريقها في سفينة إلى الأرض المقدسة فقد شرع معظمهم في القيام برحلة العودة إلى الوطن، ولم يعرف قدر أولئك الذين أبحروا إلى الممالك الصليبية، كما كان الأمر نفسه بالنسبة للأغلبية العظمى من الأطفال الذين حاولوا العودة إلى قراهم الأصلية، غير أن قلة نجحت بشكل مثير للشفقة في الوصول إلى بلادهم.

وكان قدر الأطفال الفرنسيين، إذا كان ثمة. قدر سيئاً أكثر من قدر الأطفال الالمان، فقد وصل إلى فرنسا سنة 1230 قس يحمل قصة مرعبة، وأخبر الناس المسحورين والمرعوبين في فرنسا، إنه كان أحد الأفراد الشباب من القساوسة الذين شعروا بواجبهم في مرافقة الأطفال عندما أبحروا من مارسيليا، ولم يبتعدوا كثيراً عندما هبت عاصفة على ساحل سردينيا وتحطمت سفينتان وضاع جميع ركابها، أما السفن الخمسة الأخرى فقد نجت من العاصفة وتابعت الإبحار ليجد الأطفال أنفسهم محاطين بعد يوم أو يومين ببعض سفن حربية آهلة بالمسلمين من إفريقيا، وقد حذرهم بلطافة التاجران المارسيليان هيغ الحديدي ووليم الخنزير، ثم أن السفن الفرنسية التجأت إلى ميناء جزائري حيث بيع العديد من الأطفال في سوق النخاسة وأمضوا بقية

حياتهم في عبودية، بينما نقل آخرون إلى مصر حيث بيعوا بأسعار أفضل، ووصل إلى بغداد قلة قليلة فقط. وهناك رفض ثمانية عشر شاباً منهم إنكار إيمانهم المسيحي، واستشهدوا وقد نجا الرجل الذي أخبر بهذه القصة من قدر الأطفال أنه كان، ككاهن، رجلاً متعلماً، فقد أخذه الوالي المسلم مع آخرين مشابهين إلى داره كمترجمين ومعلمين، وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وفي آخر الأمر ولسبب ما أفسح المجال لهذا الرجل للعودة إلى بلاده ليخبر بقصة ضياع الأطفال، وعلى الأرجح أن وليم الخنزير وهيغ الحديدي لم يوجد ليحاكما على الرغم من أن اسطورة متأخرة بعد تلك الفترة ذكرتها بدل رجلين شنقا لجريمة مختلفة.